الباب الثالث

مقومات الإصلاح التي يعتمد عليها

obeikandl.com

obeikandl.com

مقومات الإصلاح التي يعتمد عليها:

جاءت رسالة الإسلام الخاتمة لتجعل الإصلاح عنوانها الأساسي، والمسلم لا يعد مسلمًا إلا إذا بدأ بممارسة هذه العملية الإصلاحية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة شرع الله عز وجل، قال تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: ١١٠].

قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليبين أن الخيرية لهذه الأمة في هذا الإصلاح.

والنبي ﷺ يبشر الذين يحملون رسالة الإصلاح من بعده بقوله: «فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي»، أي أنه يعلم أنه سيحصل حالة من الإفساد لكنه يبشر الذين يتصدون لهذا الإفساد بالإصلاح بدرجة عالية في الجنة والمثوبة في الآخرة، وهذه هي مقومات الإصلاح لمن أراد أن يحمل مشروعًا إصلاحيًا يقدمه للأمة من الكتاب والسنة.

أولا: الإصلاح لابد أن ينطلق من منطلق إيماني عقدي تربى عليه الأمة:

فالإصلاح تحت أي عنوان غير عنوان الإيمان إصلاح ناقص قاصر متقطع لا يمكنه أن يستمر، وإنما الإصلاح الذي ينطلق من منطلقات إيمانية قرآنية عقدية هذا هو الإصلاح الناتج لأن صاحبه يعمل لله ويقوم بما يقوم به لله، لأنه صاحب رسالة يحمل هذه الرسالة الإصلاحية ليوصلها إلى الناس جميعًا لكي تسعد بها البشرية فلابد

من إصلاح النفوس أولاً بالإيمان بالله عز وجل، فلا يمكن أن يتصور أن يقوم إصلاح أو يتم إصلاح والنفوس فاسدة، لأن الإصلاح والإفساد إنما ينبعان من النفس فلابد أن ترى النفس تربية إيمانية عقدية، فإذا أصلحت النفوس ضمنت نجاح الإصلاح واستمراره.

والنبي ﷺ بعث لإصلاح البشرية فمكث في مكة ثلاث عشرة سنة يربيهم على العقيدة، وقارن بين النفس التي أصلحها الإيمان وبين نفس فاسدة لم يصلحها الإيمان.

في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي جاء بكنوز كسرى من المدائن عاصمة فارس إلى المدينة عاصمة الإسلام، رجل يلبس المرقع من الثياب وليس مع حارس ويأتي من المدائن إلى المدينة وهو يحمل كل هذا المال: سواري كسرى من غير أن يفكر في أن يمد عينيه إليه فضلاً عن أن يمد يده.

قارن بينه وبين من يؤتمن على الخزائن فتهرب الأموال منها ولا يبقى إلا حديدها، ما الفرق بين المثلين هل هو القانون؟ لا.. المسلم لا يحكم بالقانون إنما يحكم بالإسلام، فالقضية في النفس، هذه نفس صلحت بالإيمان فعفت، وهذه نفس فسدت فمن أين تأتيها العفة؟ قالها عليّ بن أبي طالب لخليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عففت فعفوا، ولو رتعت لرتعوا.

قارن بين حاكم يقول: (والله لو عثرت بغلة في العراق لخشيت أن يسألني الله عنها يوم القيامة لِمَ لم تصلح لها الطريق يا عمر؟). وبين حاكم يظلم ويقتل النفوس البشرية تعذيبًا.

ولهذا كان اهتمام الإسلام أولاً بإصلاح النفوس وتصحيح العقائد، باعتبار أن الإصلاح العقدي أول كل شيء لمن أراد الإصلاح، من هنا نبدأ، التوحيد أولاً.

قال تعالى: {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} [الشورى: ١٣]، أول شيء إصلاح الدين.

قال ﷺ: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري» فإصلاح الدين هو الأساس يبدأ بأن يصلح العقائد ويربط الناس بربهم ويعبد الناس لربهم.

ثانيا: أن يتبنى رسالة الإصلاح في الأرض المصلحون.

عماد أساس رسالة الإصلاح هم أهل الصلاح، فلا يمكن أن يتبنى رسالة الإصلاح فلان أو غيره من لا تصلح نفسه، لأن الله عز وجل لا يصلح عمل المفسدين.

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ} [يونس: ٨١]، لأن طبيعة المفسد أنه يتآمر على الإصلاح، فإذا جعلته هو الراعي لعملية الإصلاح فسدت الأرض وكثر المفسدون، وبهذا دخلت الأمانة في غير موضعها، كما قال ﷺ: «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظروا الساعة»، حينما يتكلم في أمر الأمة غير أهل الصلاح فانتظر الساعة كما قال ﷺ: «إن بين يدي الساعة سنوات خداعات، يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين وينطق الرويبضة» قالوا: وما الرويبضة يا رسول الله؟ قال: «الرجل التافه – أو الفاسق – يتكلم في أمر العامة» [1] وهذا زمان الرويبضة.

---

(١) رواه ابن ماجة بسند صحيح.

حين يتولى أمر الأمة والحديث عنها التافه والفاسق من أهل الفساد فنحن على موعد مع الساعة، وليس هناك إصلاح ولا صلاح لأن هذا منطق منكوس ولا يمكن أن يكون هناك إصلاح إلا إذا حمله أهل الصلاح، لأنهم هم الذين يعرفون قدر الإصلاح بين الناس، وهم حملة رسالة الإصلاح.

ثالثا: أن يبدأ صاحب رسالة الإصلاح بنفسه أولا ثم بمن حوله من ذريته.

لما نزل قوله تعالى: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾} [الشعراء: ٢١٤]، بدأ رسول الله ﷺ بنفسه وقال لقومه: **«أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً وراء هذا الوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيَّ؟»** قالوا: نعم ما جربنا عليك كذبًا، فقال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، ثم قال لقومه: **«اعملوا فلن أغني عنكم من الله شيئًا، يا صفية عمة رسول الله ﷺ يا فاطمة بنت محمد اعملوا، فلن أغني عنكم من الله شيئًا لا يأتون الناس بأعمالهم وتأتون بأنسابكم»**.

فلا تحاول أن تصلح الناس وأنت فاسد، إذ كيف تدعو الناس إلى الصلاح والإصلاح وأنت وآل بيتك ومن حولك يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

ولهذا قال سيدنا شعيب عليه السلام لقومه: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود: ٨٨].

كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إن الناس ليؤدون إلى الإمام ما أدى الإمام إلى الله، وإن الإمام إذا رتع رتعت

الرعية، وحين كان يريد أن يأمر الناس بأمر وينهى عنه يذهب أولاً إلى أهل بيته يقول: إني نهيت الناس عن كذا وكذا وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم، فإن وقعتم وقعوا وإن هبتم هابوا، وإني والله لا أوتى برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا أضعفت له العقاب لمكانه مني، فمن شاء منكم أن يتقدم ومن شاء منكم أن يتأخر.

والقصص في هذا كثيرة متواترة.

وسيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه تولى الإمارة، فرأى فسادًا كبيرًا وأراد الإصلاح فماذا فعل؟ بدأ بنفسه، ودعا أهل بيته فاطمة بنت عبد الملك بن مروان زوجته وبنت عمه كان أبوها وأخوها وجدها وزوجها خلفاء.

بنت الخليفة والخليفة جدها ::: أخت الخليفة والخليفة زوجها

حازت المجد من جميع أطرافه، خيرها بين أن ترد ما بيدها إلى بيت المال ليكون مِلكًا لعموم المسلمين، وتصبر على الحياة الشديدة مع عمر ابن عبد العزيز أو تفارقه، فرضيت بالبقاء معه على شظف العيش... فبدأ بنفسه أولاً ثم أهل بيته حتى إذا نادى الناس إلى الإصلاح يكون هو أول من يقوم به، فأصلح الله به البلاد والعباد في أقل من سنتين ونصف سنة.

قد كان الرسل عليهم السلام يبدؤون دائمًا بأنفسهم، كما قال ﷺ لأسامة بن زيد الحب بن الحب رضي الله عنهما عندما شفع في حد السرقة للمرأة المخزومية قال: **«أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة، والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها»**.

إن من أهم جوانب العظمة في سيرته ﷺ أن حياته كلها كانت مكشوفة للجميع كالشمس في رابعة النهار، بمعنى أن ما يحدث في بيت النبوة يعرفه كل الناس لأنه ليس عنده ما يعاب به، وكذلك صاحب رسالة الإصلاح لابد أن تكون حياته مكشوفة للناس، ولابد أن يكون كتابًا مفتوحًا للناس، يعرف الناس ما له وما عليه وما لأولاده وما عليهم وما لأقاربه وما عليهم.

رابعا: أن يرعى صاحب رسالة الإصلاح طبائع الناس وأحوال الزمان.

وأن يتدرج بالناس التدرج المناسب، لا يبطئ البطء الذي يفقد الأمل في الإصلاح، ولا يندفع الاندفاع المتهور الذي يبطل الإصلاح.

وهذا سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، صاحب التركة المثقلة عندما تولى الخلافة وبايعه الناس رجع إلى بيته ليقيل - فنام - فدخل عليه ابنه فقال: أتقيل يا أبت؟ أتقيل وقد حملك الله هذه المسؤولية؟ لابد أن تقوم وتصلح هذا الفساد؟ فقال: يا بني ذاك أمر شاب عليه الصغير وهرم عليه الكبير، فإن ذهبتُ أحمل الناس على الحق جملة تركوه جملة، ولكن لله عليّ ألا يمر عليّ يوم إلا وأنا أحي سنة وأميت بدعة.

وقال: يا بني إن آباءك وأجدادك قد دعوا الناس عن الحق، فانتهت الأمور إليّ وقد أقبل شرها وأدبر خيرها، نعم سنون مضت تقارب الستين سنة، والقافلة تسير منحرفة بقادتها بعيدة عن الجادة، حتى نشأت أجيال لا تعرف سوى هذا الطريق طريقًا، ولا ترى إلا هذا المنهاج منهاجًا أمور فني عليها الكبير وكبر عليها الصغير

وفصح عليها الأعجمي وهاجر عليها الأعرابي، حتى حسبوها دينًا لا يرون الحق غيرها.

لا بأس بالتدرج ولكن التدرج الذي يمشي بخطا طيبة نحو الإصلاح يميت بدعة ويحيي سنة، أما التدرج الذي يحيي سنة ومعه مائة بدعة، وبعد سنوات يقيم سنة ومعها مائة بدعة فليس تدرجًا، إنما هذا قتل لطريق الإصلاح، وليس هذا منهج الإسلام في الإصلاح فأهل الجاهلية الأول كانوا يشربون الخمر وكانوا يزنون وكانوا يسرقون وكانوا يأكلون الربا ولم يبدأ الإسلام بمنعهم من هذا كله، إنما بدأ يصلحهم شيئًا فشيئًا، كما قالت عائشة: لو نزل أول ما نزل لا تسرقوا ولا تزنوا لما امتنع الناس، ولكن بعد سنوات من التربية الإيمانية، امتنع الناس عن ذلك كله: {فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ} [المائدة: ٩١]، قالوا: انتهينا يا رب.

خامسًا: أن يكون الإصلاح شاملا لكل مجال الحياة:

(سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا) فلا يصح أن نقول أن مهمتنا الإصلاح الاقتصادي فقط أو السياسي فقط، إنما يكون الإصلاح عامًا في جميع مناحي الحياة (اقتصادي - سياسي - علمي - أخلاقي..) إصلاح في كل المجالات حتى يستفيد الناس وتصلح الأرض بهم.

إن رسول الله ﷺ وهو ما يزال في مكة وقبل أن يقيم الدولة ليس هناك ثمت دولة كان يتلو على أصحابه قول الله عز وجل في سورة الشورى، وهي السور المكية: {وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ} [الشورى: ٣٨]، فهذا إصلاح سياسي قائم على الشورى والمشاورة، وهو لا يزال بعد لم يقم دولة أيضًا، وهو لا يزال بعد لم يقم دولة، في مكة بدأ بالإصلاح

الاقتصادي فكثير من الآيات المكية تتكلم عن الإنفاق والصدقات والمنفقين قبل أن تشرع الزكاة وقبل أن تقام الدولة التي ستجمع هذه الزكاة وتنظم هذه المصارف.

وأيضًا وهو لا يزال بعد لم يقم دولة دعا إلى ترك الظلم والجور، وإقامة العدل فهذا إصلاح شامل في جميع مناحي الحياة حتى إذا أقام الدولة في المدينة، حمت هذا الإصلاح وقامت به، ونزل قول الله عز وجل: { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ } [آل عمران: ١٥٩]، هذا فيه تطييبًا لقلوب الصحابة.

سادسًا: أن يكون الإصلاح قائمًا على إقناع الأمة بجدواه وفحواه، وعدم إكراه الأمة عليه.

لا ينجح الإصلاح إذا فُرض على الناس فرضًا، فإذا كان هناك رسالة للإصلاح فلابد أن تقتنع الناس بها ولابد من عرضها على عقول الأمة، ولا يفرض عليهم فرضًا أو يُكرهون عليه.

إن قضية فرض مشروع إصلاح على الناس من غير إقناع هي مبدأ فرعوني استبدادي: {قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾} [غافر: ٢٩]، هذا هو المشروع الإصلاحي الفرعوني، ألا يرى أحد شيئًا إلا ما يراه فرعون، فمن أين للناس أن يقتنعوا بهذا، فعندما تقول للناس: ساعدوني في هذا المشروع ولابد أن نتعاون فيه، فكيف نتعاون في شيء أنا غير مقتنع به أصلاً؟

وإذا نظرنا إلى مشروع النبي ﷺ في الإصلاح نرى قول الله تعالى: { وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ } [الكهف:

٢٩]، يوضح أنه سيعرض الحق وسيقوم أدلته وبراهينه وسيعمل على إقناع القلوب بجدواه، ثم يترك للناس الخيار في قبوله أو رفضه من غير إكراه أو إجبار، إذًا لكي ينجح المشروع الإصلاحي فلابد أن تقتنع الأمة، بجدواه، وأن تدرك قيمته حتى يشارك جميع أفراد الأمة فيه، ويتسابقون لحمل رسالة الإصلاح كما فعل الصحابة رضي الله عنهم، عندما قال ربعي بن عامر لرستم قائد الفرس عندما قال له: ما الذي جاء بك إلى بلادنا؟ قال ربعي بن عامر: جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

إنه رجل مقتنع بما خرج من أجله من إصلاح البلاد والعباد برسالة الإسلام، وهذا الذي جعل خبيب بن عدي يقول: وهو على الصلب عندما قال له أبو سفيان بن حرب وهو على الشرك: أتحب أن يكون محمد مكانك هذا وأنت معافى في أهلك، فيقول خبيب: والله ما أحب أن أكون الآن في أهلي ومحمد مكانه تصيبه شوكة في بدنه، إنه رجل مؤمن بكل التضحيات من أجل رسالة الإصلاح التي حملها ولذلك لا يبالي بما يقوم من التضحيات، أما أن تساق الأمة سوقًا إلى أن تضحي من أجل مشروع أو رسالة لم تقتنع بها ولم تؤمن بها، ولم تعرف جدواها ولا فحواها فلابد أن يقع الفساد في الأرض، ولابد أن يسقط مشروع الإصلاح هذا.

سابعا، أن تكون بوابة رسالة الإصلاح الحرية ومنهجه الشورى، ولحمته العدل.

لأن الإصلاح لا يمكن أن يحصل مع الاستبداد والجبروت، فهذا أمر غير منطقي ولا تقبله العقول بطبيعتها، ولنا في قصة موسى

عبرة وعظة، عندما دخل المدينة على حين غفلة من أهلها ووجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه بضربة واحدة فقتله، وفي اليوم الثاني وجد نفس الرجل الذي من شيعته يقاتل رجلاً آخر، فاستغاث به مرة أخرى، قال له: إنك لغوي مبين، ويوضح هذا القرآن في قوله: {فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٩} [القصص: ١٩].

لا يصلح أن تكون مصلحًا وجبارًا في نفس الوقت، وهذا فيه أن سفك الدم إفساد في الأرض وليس من الإصلاح فلا يتصور أن يكون هناك جبروت وإصلاح في وقت واحد هذا غير منطقي، وهذا ما فهمه ذلك الرجل بالمنطق البسيط والفطرة الطبيعية.

{إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ} [القصص: ١٩]، لا يمكن أن يجتمع جبروت في الأرض وإصلاح، كمن يقول: الديمقراطية لها أنياب، فيكف تكون ديمقراطية إذًا؟ لابد أن لمن يحمل الإصلاح أن يكون عنده حرية وشورى وعدل ولا يمكن أن ينجح مشروع إصلاح في ظل استبداد وجبروت بل لابد من الحرية، ولابد أن تعبر الأمة عن رأيها بكل حرية، ولابد أن يكون هناك شورى، فلا رأي لخائف ولا عقل لمستبد، لأنه حين يشيع الاستبداد يكون عقل الأمة عند حذاء المستبد لا تفكر وحتى لو فكرت.

فالخائف إذا فكر يكون تفكيره مشوشًا ورأيه مشوشًا، ما الذي يمكن أن يحدث لو لم تكن في الأمة حرية وشورى؟ لم يقف الحباب

بن المنذر يوم بدر ويعرض رأيه ومشورته على النبي ﷺ وقيام النبي ﷺ برأيه ومشورته، لم يقف سليمان الفارسي يعرض رأيه بكل وضوح وصراحة يوم الخندق، ويأخذ بمشورته، لذلك تجد في المنهج الإسلامي: {وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ} [الشورى: ٣٨]، ولما أدت الشورى في وقت ما إلى نتائج غير جيدة كما في غزوة أحد، أنزل الله عز وجل على نبيه تأكيدًا لمبدأ الشورى: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} [آل عمران: ١٥٩]، إلزامًا للنبي ﷺ بالشورى على الرغم مما حدث.

فإذا كان النبي ﷺ وهو المعصوم المؤيد بالوحي مأمورًا أن يشاور أمته وأن يشاور من حوله، ويقول لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، والله لو اجتمعتما على رأي ما خالفتكما، ويقول عنه أبو هريرة رضي الله عنه: ما رأيت أكثر مشورة من رسول الله ﷺ لأصحابه في الأمور كلها.

فكان النبي ﷺ يشاور في كل أمر في أمور حياته، يشاور الكبير والصغير، ويأخذ برأيه ويشاور المرأة، ويأخذ برأيها، لقد شاور يوم الحديبية، وأخذ برأي أم سلمة، وجنب رأيها ويلات كثيرة.

إن حامل أي رسالة إصلاح لابد أن يشاور الأمة في كل أمرٍ من أمورها، ولن يبلغ ما بلغ النبي ﷺ من المشورة وهو المؤيد بالوحي من السماء.

إن مدخل الإصلاح الناتج هو الحرية وعدم الاستبداد في الأمور كلها، لأن الاستبداد مهلكة، ومنهج الإصلاح الناجح هو الشورى لأنها منهج حياة، وعماد الإصلاح الناجح هو العدل لأنه أساس الملك والحكم.

ثامنًا: اعتبار وحدة الأمة صمام الأمان لمشروع ورسالة الإصلاح:

من سمات مشروع الإصلاح الناجح أنه لا يعمل لصالح فئة فئوية ولا يصوغ قوانين لصالح كائنة إنما يصوغ للأمة كلها ويعتبرها وحدة واحدة حتى غير المسلمين..

قال تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾} [الممتحنة: ٨].

والنبي ﷺ يقول: **«من آذى ذميًا فأنا خصيمه يوم القيامة»** وأكد النبي ﷺ على حق غير المسلم في المجتمع المسلم، فطالما أنه لا يظاهر علينا ولا يحمل علينا سلاحًا بل يعيش معنا، فلابد أن نحميه، بل لابد أن نقسط إليه: {أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ} [الممتحنة: ٨].

فالمشروع الإصلاح الناجح لا يفسد بين الناس، إنما حينما يأتي مشروعي إصلاحي لابد أن تذوب الفوارق بين الطوائف فيه ولا يعمل لصالح فئة أو حزب أو طائفة أو مذهب عندما دخل الرسول ﷺ المدينة كتب وثيقة عهد بينه وبين اليهود وبينه وبين المشركين الذين يعيشون داخل المدينة، وثيقة لإقامة الحقوق والواجبات وصيانة الحرمات بين بعضهم البعض، لهم ما لنا وعليهم ما علينا ليؤكد وحدة الأمة.

قال تعالى: {إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٩٢]، ويقول النبي ﷺ: **«المسلمون يد واحدة على من سواهم ويسعى بذمتهم أدناهم وتتكافأ دماؤهم»**.

ولقد كان من أول الأعمال التي قام بها النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة كتابة الوثيقة بين المسلمين وبين اليهود

المقيمين في المدينة، وتعد هذه الوثيقة إعلانًا دستوريًا نحو الإصلاح ينظم الدولة الإسلامية، ويوضح علاقة المسلمين بغيرهم، وما لغيرهم من الحقوق وما عليهم من الالتزامات، كما يحدد السلطة في هذه الدولة والقيادة التي تحكمها.

وقد جاء في نصوص هذه الوثيقة:

١ - المسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس.

٢ - إن المؤمنين المتقين من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم والمراد ما ينال منهم من ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وأن أيديهم عليه جميعًا.

٣ - لا يقتل مؤمن مؤمنًا في كافر، ولا ينصر كافرًا على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ.

ولقد دلت هذه الوثيقة على حقائق عظيمة من أهمها وحدة المسلمين وهي أول أساس يقوم عليه منهج الإصلاح ورسالته، وأن الإسلام هو وحده الذي يؤلف وحدة المسلمين وهو وحده الذي يجعل منهم أمة واحدة وعلى أن جميع الفوارق تذوب وتضمحل، ضمن نطاق هذه الوحدة الشاملة.

تاسعا: أن يشارك في الإصلاح أفراد الأمة كلها بجميع طوائفها.

لابد أن يقوم الكل بهذه العملية الإصلاحية حاكمًا أو محكومًا، أو طفلاً أو شابًا أو فتاة فلابد لجميع عناصر الأمة والمجتمع من المشاركة الإصلاحية في بناء المجتمع، ولا تستبعد أن يشارك في عملية الإصلاح طفل، هذا الطفل يكون شرارة الإصلاح كما فعل غلام أصحاب الأخدود عندما كان شرارة الإصلاح أمام جبروت الملك الظالم كما قال ﷺ: «وكان فيمن كان قبلكم ملك، وكان له ساحر فلما كبر قال: أيها الملك إني قد كبرت فأتي بغلام أعلمه السحر»، فلما جاء له بهذا الغلام كان هذا الغلام هو الذي عمل على إصلاح العبودية لله عز وجل، وضحى بحياته من أجل هذا الإصلاح، ومن أجل تعبيد الناس لربهم: «أو ليس لك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله»، وقال: «أيها الملك إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به أن تصلبني في جزع النخل وتأخذ سهمًا من كنانتي وتضع السهم في كبد القوس، وتقول: بسم الله رب الغلام، ثم ترمي به فيقع السهم في صدغي فمات الغلام، فقال الناس جميعًا: آمنا برب الغلام».

وكذلك لما سمع زيد بن أرقم رضي الله عنه في غزوة من الغزوات عبد الله ابن أبي ابن سلول رأس النفاق وهو يقول: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأزل، قال والله لأبلغن رسول الله ﷺ ثم جاء إلى رسول الله ﷺ وقال: يارسول الله سمعت ابن سلول يقول: كذا وكذا، وجاء عبد الله ابن سلول يحلف بالله ما قال، وقال أصحابه يا رسول الله تسمع كلام هذا

الصبي، ولا تصدق كلام هذا الرجل الكبير؟ وكاد النبي ﷺ أن يصدق كلامهم حتى نزل القرآن بسورة كاملة تسمى سورة المنافقين، وتصدق قول الغلام.

كذلك المرأة في الإسلام لها دور في الإصلاح فهذه أم سليم الرميصاء والدة أنس بن مالك، لما جاء أبو طلحة الأنصاري يخطبها بعد هلاك زوجها والد أنس بن مالك بن النضر، قالت: يا أبا طلحة مثلك لا يرد ولكنك كافر، فإن تسلم فذاك مهري، فأسلم وكان مهرها إسلام أبي طلحة وكان خير مهر في الإسلام.

يقول عبد الله بن عباس: ما سمعنا بامرأة قط في جاهلية ولا في إسلام كان مهرها أحسن من مهر أم سليم، أليس هذا إصلاحًا في المجتمع أن تنقل رجلاً من الكفر إلى الإسلام فتأخذ أجره، وأجر عمله إلى يوم القيامة.

وانظر إلى هذا الرجل المؤمن من عامة الناس (مؤمن آل ياسين) عندما: {وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾} [يس: ٢٠ - ٢١]، فلما قتلوه دخل الجنة قال: {يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾} [يس: ٢٦ - ٢٧]، فهذا نموذج الإصلاح داخل المجتمع.

وانظر إلى هذا الرجل المؤمن الذي جاء من عامة الناس (مؤمن آل فرعون) الذي رأى الرسل ورأى على وجوهم الإصلاح والإيمان فوقف أما الكل وقال كلمة: {أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ} [غافر: ٢٨]، فهذا نموذج الإصلاح وهذا الرجل المؤمن من آل فرعون كان يكتم إيمانه من الظلم في بيت فرعون.

فلا نجاح لمشروع الإصلاح الذي يريد أن ينقل الأمة إلى مصاف الأمم المتقدمة إلا حينما يدرك كل إنسان في هذا المجتمع أن عليه دورًا وأن عليه واجبًا.

لابد أن يقوم به، لكن حينما تتقوقع الأمة ويهتم كل فرد بنفسه ولا يهمه أن يرى الفساد ولا يتغير، ولا يشغله أن يقوم اعوجاجًا في المجتمع فسوف تغرق سفينة المجتمع.

عاشرًا: أن يكون دم المسلم وعرضه خطًا أحمر لا مجال للاقتراب منه

هذه هي أهم هذه المقومات أنه لا يمكن أن يكون الإصلاح ناجحًا إلا إذا كان دم المسلم وعرضه خطًا أحمر لا مجال للاقتراب منه.

فكيف تُصلح وأنت تقتل؟ كيف تصلح وأن تسفك الدماء، وتنتهك الأعراض؟ كيف تصلح وأنت تتعرض لحرمات الناس ومحرمات المجتمع، وتنتهك الخصوصيات؟ لا يمكن أن يكون هناك مشروع إصلاحي يحمل السيف إلا للدفاع عن الدين والأمة، أما الإصلاح الذي يحمل السيف على رقاب الخلق فهذا إفساد وترويع وتدمير وهلاك للمجتمع.

وقف النبي ﷺ يوم عرفة في يوم النحر ليعلن هذا الدستور الخالد أما الناس جميعًا: **«إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في يومكم هذا كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»**.

إن منهج الإصلاح الناجح منهج سلمي يُؤثر اللين والكلمة الطيبة

والدعوة بالموعظة الحسنة: { ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ } [النحل: ١٢٥].

فإن المصلح الحقيقي يجب أن يقوم مشروعه الإصلاحي على أدب ودين وتقوى فلا يعتدي على أحد ولا يعتدي على حرمات الناس، فإن الحرمات مصونة والدماء مصونة، فلا يحل دم امرئ مسلم ولا يحل عرضه ولا ماله.

ولابد من المحافظة على الضروريات الخمس التي جاء الإسلام بالمحافظة عليها المحافظة على الدين والنفس والعقل والمال والعرض، هذه الضروريات ينبغي المحافظة عليها، ولا يجوز الاعتداء عليها بأي حال من الأحوال، حرمة المسلم مصونة وهي الأشد حرمة من الكعبة.

هذه هي بعض مقومات الإصلاح التي يقوم عليها ويستمد منها منهجه الإصلاحي، إن رسالات الأنبياء كلها رسالات إصلاح للبشرية جميعًا.

* * *